(٣٠) خاتمة

د. صلاح:

كنا قد طرحنا العديد من المحاور وبدأنا بعرض أزمة العلم الشرعي في واقعنا المعاصر، وكانت منهاجيتنا أننا كنا نعرض الألم في الواقع المعاصر والتاريخ أيضًا، ثم نعطي صورًا من الأمل لأنه هناك الكثير من الصور المضيئة، وكنا حريصين على أن نضع قضية الأمل بشكل واضح حتى لا ييأس أحد أبدًا من متابعينا، وكذلك كنا نقدم رؤية للعمل.

د. راغب:

أزمة العلم الشرعي كان لها ثلاثة محاور رئيسية وتفرعت عنها محاور أخرى، فكان المحور الأول هو مشكلة انفصال العلماء عن واقعهم : وذكرنا أباب هذه الظاهرة وطرق علاجها، وكانت الأزمة الثانية هي الصراع بين العلماء ولعل مرجعها كان إلى الحسد أو إلى التنافس على الدنيا، وكانت الأزمة الثالثة هي أزمة التجارة بالعلم وبغية تحصيل المال على حساب العلم المُحصَّل.

وهذه الأزمات الثلاثة إن وجدت في عالم فهي تنفيه كليةً عن المهمة التي من أجلها أصبح عالمًا، وبالتالي يؤثّر هذا الوضع عليه وعلى الأمة بكاملها، وانتقلنا بعد ذلك إلى أزمة العلم الحياتي.

د. صلاح:

بالنسبة للعلوم الحياتية، الناس قد تتصور أن العلوم الشرعية هي المبتغى الوحيد في الفكر الإسلامي، فنحن أمطنا اللثام تمامًا عن هذه المسألة وقلنا أنه يجب إعداد الأمة وابتغائها العلوم الشرعية لا يجوز أن يصرفها عن العلوم الحياتية.

وتحدثنا عن فرض العين وفرض الكفاية، وأن الأمة لا بد أن يكون بها هذا المستوى المتميز من العلوم الحياتية من الطب والفلك والهندسة والكيمياء وما إلى ذلك من العلوم.

وكذلك تكلمنا عن العلماء في التخصصات العلمية، الذين يدورون حول أنفسهم ولا يتبنوا المفهوم الحضاري الذي أشرتم إليه في نظرية الهوم الثلاثي، وبه القاعدة التحتية وهي الجانب الحضاري المادي ثم الجانب الثاني الأعلى هو الجانب الإنساني ثم الجانب الثالث وهو الجانب الإيماني، وهذه خاصية فريدة في العلوم الإسلامية لصناعة حضارة إسلامية.

فالعلوم الحياتية لا يجوز أن تنصرف فقط إلى الجانب المادي كما فعلت الحضارة المادية الغربية، ولا أن تأخذ بالجوانب الإنسانية في داخل البلد دون خارج البلد، فنحن نربي الإنسان الصالح وليس المواطن الصالح فقط، ثم الجانب الإيمان وجانب التوحيد وهو الجانب الأساسي في هذه المسألة.

تكلمنا عن الابتكار والاختراع والإحصاءات المهمة التي قُدِّمت عم الفوارق الهائلة جدًا بين بلادنا العربية والإسلامية وبين الكيان الصهيوني المزروع داخل الأمة وأمريكا واليابان، واننا بحاجة إلى أن نتحول فعليًا، وأنه كما يوجد منح دراسية لطلاب العلم الشرعي فلا بد أن يكون هناك بالتوازي منح دراسية لطلاب العلم الحياتي، وكما نبني المساجد علينا أن نبني المعامل.

وتطرقنا في هذه المسألة إلى هجرة العلماء وأن استنزاف العلماء في الخارج يُعرِّض الأمة الإسلامية إلى التدمير لأن العقول الأساسية للتعمير غير موجودة، بل ويقومون بالتعمير في الغرب، وتكلمنا عن مخاطر هذه المسالة وكيف نتوقى هذا الاستنزاف للعقول وذلك بتهيئة مناخ عام بإيجاد مؤسسات في الدولة، إن لم تكن من الدولة فتكون من الاقتصاديين تقوم على استعادة هذه الكنوز الكبرى في استعادة البناء الحضاري للأمة الإسلامية.

إذًا نحن لا نتكلم فقط عن شيوخ نربيهم في المساجد والكليات الشرعية، بل نحن نتكلم كذلك عن صناعة علماء بالتوازي يقومون بعمل نهضة كبيرة للأمة الإسلامية بشكل عام.

د. راغب:

وطرحنا مشكلة الأمية وخطورتها وأننا نُهدر طاقات الأمة وبذلك نفقد الإبداع في ثلث الأمة وكانت هذه نسبة الأمية في العالم العربي والإسلامي وهذه كارثة بكل المقاييس!

وطرحنا بعض الحلول لقضية معالجة الأمية وأنها ليست فقط عن طريق الدولة أو عن طريق التيارات الإسلامية، لكننا نتكلم عن الشعب بكامله، فلو أنهم اهتموا بهذه القضية وانطلقوا لمحوها، فالرجال يعلمون الرجال والنساء تعلمن النساء، فهذه المهمة من أسمى المهام وبها يتغير بإذن الله حال الأمة الإسلامية، كما فعلت كوبا بأنها فرغت نفسها سنة كاملة لمحو هذه الأمية وفي هذه السنة استطاعت أن تلغي الأمية تمامًا من بلادها وأمة الإسلام أولى بذلك.

د. صلاح:

وهذا الوضع في أزمة العلم الشرعي والعلوم الحياتية انتهى بنا إلى أن نقدم رؤية عن نموذج العالِم الرباني من حيث صفاته، وكانت أكبر نقطة ثراء هي اننا كنا نعطي التأصيل الشرعي ثم التنزيل على الواقع التاريخي والمعاصر.

وكان من المعايير الأصلية التي اخترناها للعالِم الرباني أنه يجب أن يكون شديد الإخلاص لله، وذكرنا العديد من الوسائل العملية التي تعين هذا العالِم على أن يكون مخلصًا، وأن يكون لديه الصلة بالله سبحانه وتعالى، لأن الخواء الروحي هو السبب في الصراع بين العلماء والسبب في انفصاله عن الواقع والسبب في حسد غيره من العلماء والسبب في أن يتاجر بهذا العلم ولا يبتغي به الدار الآخرة بشكل أساسي.

د. راغب:

وذكرنا أن الإخلاص يُزرع في القلب بسبب الدوام على قيام الليل وقراءة القرآن والذكر لله سبحانه وتعالى ودوام التفكُّر في خلق الله عزَّ وجلَّ.

وكذلك ذكرنا قضية الأخلاق ، التي يجب أن يتصف بها العلماء، وكانت أول هذه الأخلاق هي الأمانة، والأمانة لها مظاهر كثيرة جدًا وخاصة بالنسبة للعالِم، سواء في الأمانة العلمية وأنه إذا نقل عن أحد العلماء فلا بد أن يثبت هذا النقل وأن يذكر محاسن العلماء الآخرين ومن الأمانة أن يذكر الرأي الآخر الذي قد يضاد رأيه أو يعارضه، ومن الأمانة أن يُوصِل الكلمة إلى أهلها وأن يقول كلمة الحق ولو كان لدى سلطان جائر ولو تعرض للأذى، فكل هذه من الصفات الرئيسية للعلماء.

د. صلاح:

وكذلك تناولنا خلق الصبر والمصابرة، وتكلمنا حول الصبر عن المحرمات والصبر عن المباح، والصبر على فتنة الإيذاء والإغواء، والصبر الجميل الذي يدفع بالعالم أنه يقلل من نومه وطعامه وملذاته في الحياة ويقلل من الوقت الذي يصرفه في غير طلب العلم، وكذلك الصبر المُعلِم والصبر على الرحلة الطويلة في طلب العلم والصبر على البعد عن أهله كما كان يفعل بعض العلماء، وكل ذلك ليُفرِّغ نفسه لطلب العلم ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى.

د. راغب:

كذلك حرصنا على قضية الأمل التي يجب أن يتصف بها العالِم، لأن العالم المُحبَط أو اليائس لا يكون عالمًا، لأن الإنسان المحبط لا يستطيع ان يغير أو يحرك العالَم أو ينهض، فلا بد أن يحرص على زرع الأمل في نفسه ونفوس الناس فلو كان فاقدًا للأمل فكيف يزرعه في نفوس الناس!

فلا بد ان يتميز بالأمل وهذه الصفة يجب أن يتصف بها كل المؤمنين، لأن اليأس من صفات الكافرين وليس المؤمنين: {قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: ٥٦]، و{إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧].

فإن كانت هناك مشاكل وعوائق متعددة فلا بد للعالِم مع كل هذه العوائق أن يكون مستصحبًا لأمل دائم ويقين أن الله سينصر هذا الدين وسيُعزّ هذه الأمة ويجعلها من الأمم الرائدة السابقة، حتى وإن لم ير ذلك بعينيه فسيراه أبناؤه وأحفاده.

لكنه سيتحقق حتمًا وسيعود الفضل له بإذن الله عندما يرى ثواب هذا العمل الكبير نتيجة الجهد الذي بذله في حياته.

د. صلاح:

وكذلك تكلمنا عن دور العالِم مع الحاكم وعن هذه العلاقة المتوترة سواء في الإهمال أو الإيذاء أو الهجوم على الحكام أو في التزلف والنفاق، وأنه لا بد أن يُعاد بناء هذه العلاقة على النصح وأن يشعر الحاكم أن هذا العالِم رصيد له في الدنيا قبل الآخرة وكذلك أن يترفق العالِم بالحاكم ويقدم له النصح ويُظهر الحق ولا يخشى في الله لومة لائم حتى ولو أغدق الحاكم عليه في المال أو في المسؤوليات.

والأصل في العالِم أن يتعزز ويتعفف ليبقى قويًا في كلمة الحق ولا يخشى فيها لومة لائم، وضربنا أمثلة من تاريخ العلماء وخاصة العز بن عبد السلام وماذا فعل مع الملك الصالح نجم الدين أيوب، وحاولنا أن نبني جسرًا بين العلماء والأمراء والحكام.

د. راغب:

حتى اننا ذكرنا تفسير الآية: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: ٥٩]، وأن أولي الأمر هم العلماء والأمراء معا، ليس العلماء فقط أو الأمراء فقط، بل هما الاثنين يمكن ان يقودوا سفينة الأمة معا، حتى أن أحد العلماء يقول: (لو كان لدي دعوة واحدة لادخرتها لحاكم)، لأن بصلاح الحاكم تنصلح أمور الأمة كلها وبصلاح العلماء أيضًا تنصلح أمور الأمة.

فالعلاقة لا بد أن تعود إلى طبيعتها التي أرادها الإسلام، وهي علاقة التناصح والتكامل وليس التصارع والتصادم بين الحكام والعلماء.

د. صلاح:

وكان خطابنا موجهًا إلى كل أبناء الأمة الإسلامية والأم والأب والمعلم والمعلمة والإداريين والاقتصاديين والحكام والوزراء، وكما ذكرنا أن نظام الملك الطوسي كان سببًا في نهضة عملية حضارية متميزة جدًا في حياته وبعد وفاته.

فكلامنا لكل مخلصٍ فيه نصيب، وليس فقط الأساتذة في الجامعات أو الشيوخ أو الإداريين أو الوزراء، فكلٌ له سهم وكلٌ على ثغر ويستطيع أن يساهم في بناء العلماء ذوي النبوغ العلمي والعلماء الربانيين.

فكل بيت ولو كان يعاني يمكن أن ينشأ من رحم المعاناة عالمًا شرعيًا متميزً، ويكتشف في ابنه الطاقات ويوجهه إن كان من أهل ومحبي العلوم الشرعية، وإذا كان موجهًا إلى العلوم الحياتية لا يقول له هذه علوم دنيوية لا قيمة لها بل يساعده ويدعمه على أن ينبغ في هذه العلوم.

د. راغب:

وعليهم أن يراعوا الموهبة التي رزقه الله عز وجل بها، وكثير من العلماء بدأوا باتجاه وثم غيروا هذا الاتجاه عندما وجد ميولهم في الاتجاه الآخر، ولو كان استمر في اول اتجاه لكان من العلماء العاديين الذين لا ينتجون ولا يحركون، فالله سبحانه وتعالى وزَّع المواهب على الناس والإمكانيات والطاقات، وكلٌ منا عليه ان يكتشفها.

د. صلاح:

واتفقنا منذ البداية على أن البداية تبدأ من عموم الأمة، لا ننتظر أبدًا أن الحكام والأمراء والوزراء هم من يبدؤون، وإن كنا لا نعفيهم من المسؤولية والدور أمام الله سبحانه وتعالى، لكن كما يقول الصينيون (لا تلعن الظلام بل أضئ شمعة)، والشمعة التي نريدها هي صناعة وبناء أو اكتشاف عالِم، ورعايته وكفالته وتزويجه وتوفير الكتب له وتهيئته إذا سافر للخارج أن يكون له انتماء للأمة والبلد التي سافر منها وأن يعود إليها وأن يكون نفعه الأكبر لأمته الإسلامية.

فالنقطة المحورية هنا أن البداية تبدأ من كل فرد في المجتمع، لكن هذا لا يُعفي أصحاب النفوذ والسلطة لأنه بقرارٍ واحد يستطيعوا أن يغيروا المسار تمامًا.

د. راغب:

وضربنا المثل في ماليزيا وتركيا التي فيها نهضة حكومية تنظر إلى العلم كقيمة رئيسية وغيرت كل البلد وأصبحت تتوجه توجها علميًا وهذا أثَّر على شكل البلد وطبيعتها ومكانتها في العالَم، وهذا يستفيد منه في النهاية الحاكم والمحكوم والعالِم وطالب العلم والرجل والمرأة والكبير والصغير، بل والدنيا كلها تستفيد بتقدم هذه البلاد في العلم.

وذكرنا أن العلم يبني كل الأمم حتى الأمم غير الإسلامية تقدمت بالعلم، مثل كوبا وغيرها الذين وصلوا إلى درجة كبيرة من العلم وهم أقل من المسلمين في الهدف الأخروي أو في الهدف النهائي في البحث عن العلم.

د. صلاح:

هل ترى اننا وفّينا قضية صناعة العلماء حقها؟

د. راغب:

أعتقد أننا قطعنا ٢% من الطريق، ونطمع أن ربنا سبحانه وتعالى يبارك لنا في الوقت والعمر لنُكمل ما بقي من الطريق، والعالِم الرباني موسوعة ومؤسسة وأمة كاملة فمن المستحيل أن تصنعه في مثل هذا الوقت القليل من البرنامج ، لأنه يحتاج لجهود متتالية ومتواصلة.

وصفات العلماء الربانيين ذكرنا أطراف منها وهناك أطراف كثيرة لم تُذكر ولا شك أنه هناك الكثير من الاستدراكات لدى المتابعين، ولذلك إن شاء الله نطمع أن يكون لدينا الكثير من هذه اللقاءات في مثل هذه الموضوعات.

د. صلاح:

الحقيقة فعلًا هذه اللحظة لحظة صعبة على النفس، لكن أريد أن أقول يشهد الله سبحانه وتعالى نحن معًا نحبكم في الله حبًا جمًا وكما قال الشاعر:

لُغةُ الكلامِ كمَا رأيتَ على فَمِي *** خَجِلَتْ ولولا الحُبُّ لمْ أتكلمِ

فنحن نحب الله ونشهده على ذلك ونحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحب كتابه والصالحين والصالحات من عباده سبحانه وتعالى واملنا كبير، ولا يخالجنا أدنى شك أن الغد للإسلام، لكننا سنجاهد لننتقل من ميدان القول إلى ميدان العمل ومن ميدان العمل إلى ميدان الجهاد لصناعة العلماء والجهاد الحق بإذن الله تبارك وتعالى وحتى {لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا} [الأنفال: ٤٤].

وحتى يمكِّن الله سبحانه وتعالى بنا هذا دينه بإذن الله تبارك وتعالى.

جزاكم الله خيرًا وشكر الله لكم

وتحية من أعماق القلب إلى أخي فضيلة الدكتور راغب السرجاني تقبل الله منا ومنكم اجمعين

وتقبل الله منا ومنكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته